مواقف وأحداث

ذكريات رمضانية (5).. الشيخ يوسف القرضاوي وحرب العاشر



الاثنين 4 مايو 2020 01:47 م

وكان من أهم ما حدث في هذا العام، وفي شهر رمضان المبارك: ما فاجأنا وفاجأ العالَم كله من حدث اهتزت له القلوب طربًا، وابتسمت له الثغور فرحًا، ولهجت به الألسنة ثناءً، وسجدت الجباه من أجله لله شكرًا. إنه الحدث الذي عوضنا عما فوجئنا به من قبل في الخامس من حزيران «يونيو» (1967م)، والذي خسرت به الأمة ما خسرت، وكسبت إسرائيل ما كسبت، وضاعت به - إلى اليوم - القدس والضفة والقطاع والجولان، بالإضافة إلى سيناء التي استردتها مصر فيما بعد.

وهذا الحدث الذي أحيا الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، بل الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط، هو: حرب العاشر من رمضان، وأنا أحب أن أسميها دائمًا: معركة العاشر من رمضان، وليس السادس من أكتوبر؛ لأن شهر رمضان ونفحاته وبركاته وإمداداته التي هبت نسماتها على الجنود الصائمين والمصلين، كان له أثره في تحقيق النصر، وإمداد المقاتلين بشحنة إيمانية دفعتهم إلى البذل والفداء، أما أكتوبر، فليس له أي إيحاء أو دخل في هذا النصر.

ما زلت أذكر هذا اليوم المشرق، وقد خرجت من درس العصر في مسجد الشيخ خليفة، فإذا الأنباء المبشرة تستقبلني، وإذا الهواتف تدق ولا تتوقف، للاتصال بي من هنا وهناك، مهنئة بما وقع، شاكرة لله تعالى، الذي صدق وعده، وأعز جنده، وهزم الظالمين وحده.

في أول الأمر خفت أن نكون مخدوعين، كما خدع كثيرون أيام نكبة (5) يونيو (1967م)، فقد كانت إذاعة القاهرة تذيع الأكاذيب على الناس، وتخدرهم بأخبار لا أساس لها: طائرات إسرائيلية تسقط بالعشرات، والحقيقة أن طائراتنا هي التي ضُربت في مدرجاتها، ولم تطر حتى تسقط، ولكن كانت الشواهد كلها تؤكد أن هذه حقيقة وليس حلمًا، وأنه واقع وليس من نسج الخيال. ألا ما أحلى مذاق النصر، وخصوصًا بعد تجرع مرارة الهزيمة المذلة من قبل! وللأسف طالت هزائم الأمة في معارك شتى، وذرفت الدموع كثيرًا على هزائمها، حيث لم تغن الدموع، وآن لها أن تجد مناسبة تفرح بها بعد حزن، وأن تضحك بعد طول بكاء.

لقد عبر الجيش المصري القناة! صنع قناطر أو جسورًا للعبور عليها، مكونة من أجزاء، تركب في الحال، ويوصل بعضها ببعض، فتكون جسرًا فوق الماء تعبر فوقه المصفحات والمجنزرات والدبابات إلى البر الآخر، وقد بدأ بالعمل فيها من سنوات، ثم بدأت تجربتها، والتدريب عليها منذ شهور، في تكتم وسرية بالغة، وهذا عمل مصري خالص، لم يشترك فيه خبراء أجانب، ولهذا حفظ السر، ولم يبح به أحد.

بعد عبور القناة بسلام وأمان ونجاح، اقتحمت القوات المصرية: ما عرف باسم خط بارليف، الذي أقامته إسرائيل، ليكون حاجزًا ترابيًّا بعد الحاجز المائي، وكانت العدة قد أعدت لتخطيه بإحكام ومهارة. وكان كل شيء، معدًّا بجدارة وأناة وحكمة، ولم يكن هناك شيء مرتجل، وقام كل سلاح بدوره: سلاح المهندسين، وسلاح الفرسان والمدرعات، وسلاح الطيران، كل قام بما هيئ له، وما كلف به.

وقد اختير التوقيت المناسب لبدء المعركة، وكان رمضان هو الوقت الملائم نفسيًّا وروحيًّا، لما يمد به الجنود من نفحات، وما يعطيهم من شحنة روحية، وكان أكتوبر مناسبًا، من حيث المناخ، وليس فيه حرارة الصيف، ولا برد الشتاء. وكان الوقت مناسبًا من ناحية أخرى: إنه يوم الغفران، أو عيد الغفران عند اليهود، فلننتهز غفلتهم وانهماكهم في الاحتفال بالعيد، لنفاجئهم بضربتنا، كما فاجئونا بضربتهم في يونيو (1967م). ولا يقال: كيف نباغتهم ولا ننذرهم؟ فمثل هذه الحرب لا تحتاج إلى إنذار ولا إبلاغ؛ لأنها حرب دفاع للمحتل، وهي مستمرة معه لم تتوقف.

وأهم من هذا كله: الروح المعنوية التي كان يحملها المقاتل المصري: إنها روح الإيمان؛ الإيمان بالله تعالى، وأنه ينصر من نصره، والإيمان بأننا أصحاب الحق، والحق لا بد أن ينتصر، والباطل لا بد أن يزهق، {وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: 81]، وقد عملت العودة إلى الله، التي

تنادى بها الجميع، وشعروا بالحاجة إليها بعد حرب (1967م)، عملت عملها في تجديد الإيمان، وتقوية الأرواح، فتجلت أوضح ما تكون في ميدان القتال. وفرق كبير بين هذه الحرب وحرب يونيو (1967م)، فقد كان العنصر الإيماني والروحي مغيبًا عنها تمامًا، لذلك لم يحالفها النصر.

كانت كلمة السر في حرب (1967م): بَرّ بحر جو، ولكن الواقع يقول: إنهم لم ينتصروا في بر، ولا بحر، ولا جو، ولم يكن الذنب ذنب الجيش وجنوده، ولكن ذنب القادة الذين جروهم إلى حرب لم يخططوا لها، ولم يهيئوا لها الجند، ولم يعدوا لها العدة، ولم يأخذوا لها الحذر، كما أمر الله.

لقد ترك الجنود أسلحتهم، وتركوا دباباتهم ومصفحاتهم، لم يحاولوا أن يشعلوا فيها النار بعد أن تركوها، حتى لا يغنمها العدو ويستفيد منها؛ لأن هَمّ كل واحد منهم كان هو النجاة بنفسه، واللياذ بالفرار. لقد اعتمدوا على الآلات، فلم تغن عنهم الآلات، واتكلوا على السلاح فلم ينجدهم السلاح؛ لأن السلاح لآ يقاتل بنفسه، إنما يقاتل بيد حامله، ويد حامله إنما يحركها إيمان بهدف، وإيمان رسالة، وهذا لم يُعَبَّأ به الجنود.

يقول أبو الطيب:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام!

ويقول الطغرائي في لاميته:

وعادة السيف أن يُزْهَى بجرهره وليس يعمل إلا في يدَيْ بطل!

ماذا تجدي خيل بغير خيال، وفرس بغير فارس، وسيف صارم بغير بطل يضرب به؟! فلا عجب أن كانت الهزيمة الثقيلة المذلة في (1967م)، فهذه نتيجة منطقية لمقدمتها، كما قال العرب: إنك لا تجني من الشوك العنب، وصدق الله إذ يقول: {وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ} [الأعراف: 58].

سُئل الرئيس حسني مبارك، عندما كان نائبًا للرئيس السادات في (27/9/1975م)، سأله بعض الصحفيين: ماذا أخذنا من دروس (1967م) في الإعداد لقتال (6) أكتوبر؟ قال: باختصار ... في (1967م) ... لا تخطيط ... لا إعداد ... لا تدريب ... لا تنسيق بين العمل السياسي، والعسكري. اهـ. وأهم من ذلك: أننا لم نزود جنودنا بالإيمان، في حين تجتهد إسرائيل أن تزود جيشها بتعاليم التوراة، وتوجيهات التلمود، ونصائح الحاخامات. حتى العلمانيون من الإسرائيليين يحرصون على ذلك.

وكان من ثمرات محنة (1967م): أنها أيقظت في الناس المعنى الديني، والضمير الديني، والرجعة إلى الله، وبدأت حركة إيمانية قوية في القوات المسلحة، وكان الحرص على إقامة الصلاة، وقام وعّاظ الأزهر بدورهم في التنبيه والإحياء، وكان هناك شعور عام بالحاجة إلى الله، والدعاء بنصر الله، فلا غرو أن كان شعار المعركة: «الله أكبر».

إن الجندي المصري في (1973م) هو نفسه في (1967م) من حيث الشكل والمظهر، ولكنه غيره من حيث الباطن والجوهر، إن الإنسان إنما يقاد من داخله، لا من خارجه، ولا يقود الناس في بلادنا شيء مثل الإيمان، ولا يحركهم محرك مثل الإيمان. وهذا ما لم تفهمه قيادة (1967م)، فقد عزفوا على منظومة القومية، ومنظومة الاشتراكية، ومنظومة الثورية، فلم تحرك ساكنًا، أو تنبه غافلًا في الجندي المصري، أو الجندي العربي عمومًا.

ولكنك إذا حركته بـ «لا إله إلا الله، والله أكبر» إذا رفعت أمامه المصحف، إذا قلت: يا ريح الجنة هبي، إذا ذكرته بالله ورسوله، وذكرته بالأبطال العظام: خالد، وأبي عبيدة، وسعد، وطارق، وصلاح الدين، وقطز، وعبد القادر الجزائري، وعمر المختار، فقد خاطبت جوانيته، ودخلت في أعماقه، وأوقدت جذوته، وحركت حوافزه، وبعثت عزيمته، وهنا لا يقف أمامه شيء، إنه يصنع البطولات، ويتخطى المستحيلات؛ لأنه باسم الله يتحرك، وباسم الله يمضي، وعلى الله يتوكل: {وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥ} [الطلاق: 3]، {وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ} [آل عمران: 101].

ولأن إيماننا لم يكن كاملًا، كان نصرنا غير كامل أيضًا، فعلى قدر الإيمان يكون النصر؛ ولهذا ابتلينا بقضية «الثغرة» والتفاف العدو علينا، وهو ما كلفنا الكثير من الجهد، وأفقدنا الكثير من ثمرات النصر.